أستاذ أجيال

ما أشبه تاريخ أستاذنا أحمد لطفي السيد بتاريخ بلادى ! ! كلاهما فى حاجة إلى مؤرخ يعيد كتابته بفهم وعدالة. ولست هذا المؤرخ على أى حال !

عرفت لطفى السيد منذ ثلاثة وعشرين عامًا، وكان فى حدود السبعين، وكنت قد قرأت له ترجمة لكتابى أرسطو : « السياسة » و « الكون والفساد »، فاستهوانى أسلوبه الذى يتميز بالدقة والتركيز، والنفور من فضول السجع والمترادفات . . وأغرانى أسلوب لطفى السيد بأن أعكف على قراءة مجموعة « الجريدة » التى كان يرأس تحريرها عام ١٩٠٧، وقرأت له مقالات نشرها فى تلك السنة ومابعدها من سنوات . . لاأذكر الآن عددها. وقد أذهلتنى أفكاره، وتعبيراته، ومجادلاته المنطقية. ولم أهتم بأن أعرف حقيقة « حزب الأمة » الذى كان لطفى السيد ينطق بلسانه، وهل كان يناوئ الخديو وحكم الأتراك لحساب الإنجليز، أو أنه كان يتهاون مع الإنجليز

ليخلص البلاد من ولاية تركيا وأسرة محمد على.. ثم يتفرغ بعد ذلك لمحاربة الاحتلال. كما يؤكد بعض الذين أصابهم رشاش من انتمائهم لحزب الأمة؟

كان فى استطاعتى إذ ذاك أن أناقش لطفى السيد نفسه فى هذا الموضوع الشائك، وأنا واثق من أن الرجل لن يجد حرجًا فى أن يقول الحقيقة، ولو اقتضاه ذلك أن يدين نفسه. فقد كان لا يهرب من الحقيقة، وكانت شجاعة الرأى من أبرز مزاياه.

ولكنى لم أفعل، فقد فتنتنى شخصية لطفى السيد المفكر، وطغت على شخصية لطفى السيد السياسى. كنت أجد متعة غامرة فى الإصغاء إليه وهو يتحدث عن الأدب، والشعر، والفن، والجمال، والمذاهب الفلسفية القديمة والحديثة، وكان بارعًا فى سرد الحكايات، يحسن رواية الدعابات ويحسن أيضًا الإصغاء إليها بأذنه، وبابتسامته التى تتحول أحيانًا إلى شبه قهقهة!

وقبل ثورة ٢٣ يوليو من عام ١٩٥٢ التقيت به فى فندق سيسل بالإسكندرية، وكان يقص علينا بصوت خافت،

مايسمعه كل يوم من المهازل والمخازى التى يرويها له أصدقاؤه عن الملك.

وفى أحد الأيام قابلته فى الردهة الخارجية للفندق، وكان يجلس وحده، وناس كثيرون يملأون الردهة فأمسك بيدى، وقادنى إلى أحد الصالونات، وهو يقول:

- إننا الآن نمشى فى الطريق إلى مستشفى المجاذيب.

ولم أفهم مايعنيه بهذه الكلمة، ولما جلسنا فى الصالون روى لى قصة الصفقة التى عقدها عبود مع فاروق لإقالة وزارة الهلالى وتأليف وزارة برياسة حسين سرى، وكيف أن الملك تقاضى من عبود نصف مليون جنيه..

وعقبت قائلا: عندك حق.. هذا تصرف مجانين!

فقال: إنك لم تفهم ما أعنيه بالطريق إلى مستشفى المجاذيب.. لقد قصدت أن أبصرك بأن الأوامر صدرت بأن يساق إلى هذا المستشفى كل من يتناول الذات الملكية، بالعيب أو التجريح!

واستطرد يقول: لقد كثرت قضايا العيب فى الذات

الملكية.. فرأى القصر أن تحفظ النيابة هذه القضايا بعد أن يعتذر المتهمون ويسجلوا ولاءهم للملك «منعًا للشوشرة» وفى يوم الجمعة الماضى وقف أحد الشبان فى المسجد ومنع الخطيب من مغادرة المنبر، وخاطب المصلين قائلا: من كان منكم حريصًا على دينه فليعلم أن صلاته وراء هذا الرجل باطلة.. لأنه يدعو لملك فاجر فاسق.. صلوا ورائى.. وصلى الناس وراء الشاب وتركوا خطيب المسجد يصلى وحده!

وقبض البوليس على الشاب وساقه إلى النيابة، وقال له وكيل النيابة: إننى لا أرضى لك أن تذهب إلى السجن. ولذلك سأسألك هل قلت هذا الكلام؟ وما عليك إلا أن تنكره وتؤكد ولاءك لمولانا الملك.. وعندئذ سأطلق سراحك فورًا..

والتفت وكيل النيابة إلى الكاتب وقال له افتح المحضر، وبدأ يقول للشاب: أنت متهم بأنك تفوهت بكلمات تمس الذات الملكية.. فهل هذا صحيح؟؟

وقال الشاب: نعم!! هذا صحيح!

وقال وكيل النيابة: أنت طبعًا لاتقصد جلالة الملك

مولانا الذى نكن له جميعًا صادق الولاء؟

فقال الشاب : أنا لا أقصد سوى هذا الملك الفاسق العربيد !

وأسقط فى يد وكيل النيابة، وأسرع فقابل النائب العام، وعرض عليه المشكلة، واتصل النائب العام بالقصر وأبلغ المسئولين بما حدث وسألهم : ماذا نصنع إزاء هذا الموقف الغريب؟ فطلبوا منه أن يسوق الشاب وأمثاله إلى مستشفى المجاذيب !

وضحك لطفى السيد وقال : وهكذا أصبح كل من يقول كلمة عن الملك.. معرضًا لدخول مستشفى المجاذيب..

ولطفى السيد الكاتب المفكر المؤمن بالحريات.. ذو العقلية الفلسفية، كان يؤيد دعوة قاسم أمين إلى مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق والواجبات، وكان أحد ثلاثة بذلوا جهودًا شاقة لإنشاء جامعة أهلية مصرية، أما زميلاه فى هذا العمل العظيم.. فهما سعد زغلول وقاسم أمين. وعندما أصبحت الجامعة الأهلية جامعة رسمية، كان هو أول مدير لها. وقد أرسى فيها قواعد البحث العلمى الأكاديمى، وحمى استقلالها،

واستقال احتجاجًا على إقالة الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب.

والحق.. أن لطفى السيد باتجاهاته الذهنية واتساع آفاق تفكيره، وإيمانه المطلق بحرية الرأى والعقيدة.. كان جامعة قبل إنشاء الجامعة وقد تخرج فى الجامعة أساتذة كبار تأثروا به، وأخذوا عنه تقاليده فى التلقين والمحاضرة والجدل، وكان على رغم ثقافته الفلسفية والقانونية، مشغوفًا بالآداب العالمية وله ذوق رفيع فى الشعر العربى، وقد أبدى لى إعجابه بشعر ديوان الحماسة والمتنبي والمعرى والشريف الرضى، وكان يترنم بكثير من أشعارهم.

عندما سمعت أن لطفى السيد لفظ أنفاسه الأخيرة.. خيل إلى أن هرمًا عاليًا من الفكر والثقافة.. قد توارى فى التراب وأحسست أنى أبكى.. لم تبك عيناى.. ولكن عقلى أجهش بالبكاء!!

يحرق مذكراته..

منذ تسعة عشر عامًا قابلت لطفي السيد، وسجلت هذه المقابلة في حديث صحفي ـ قلت فيه :

اسم عادي لشخص غير عادي.. عقل وخلق وضمير. صوت قوي عذب ظل يغني لجيله المعرفة والثقافة والفلسفة. ولكن جيله كان بلا آذان.. فمازال به حتى جعل له أذنين، ولسانًا وشفتين، فسمع الجيل، ووعى، وفكر، وتكلم!

وقد بدأ أستاذ الجيل يؤدي رسالته منذ ستين عامًا.. كانت مصر في حالة انحلال، كان احتلال بريطانيا ونفوذ تركيا يجثمان فوق صدرها، كان الجهل والعبودية يتنازعان عقلها ونفسها. وهبط إلى مصر رجل لفت الأنظار، وجذب القلوب، وأثار الحماسة والتحرر! كان هذا الرجل هو جمال الدين الأفغاني المصلح الإسلامي الثائر. والتف حوله الشباب، وتأثروا بتعاليمه، وآرائه. وكان يدعو إلى الإطاحة برءوس الطغاة والحاكمين العابثين بمصالح الشعب.

وكان الشيخ الأفغاني يؤثر في شباب مصر ومن بينهم أحمد

لطفى السيد.. ولكن تأثر لطفى السيد لم يدفعه إلى أن يهم بقتل أحد، وإنما دفعه إلى أن يقاتل السخافات والخرافات والجهل. فحمل قلمه وجاهر به واستطاع أن يقتل ويغتال. قتل الأوهام وأحيا الحقائق. واغتال الظلام وأشعل المصابيح..

أرايت لطفى السيد فى أواخر أيامه؟

قوام مستقيم، وخلق مستقيم. عينان نفاذتان وعقل نفاذ، جبهة عريضة، وجاه عريض.

ولكنك لم تر لطفى السيد منذ ستين عامًا، أو أكثر.. فلنطو السنين القهقرى معًا.. لنرى لطفى السيد يغادر مدرسة الحقوق هو وزملاؤه عبدالخالق ثروت وإسماعيل صدقى وعبدالعزيز فهمى.

صوب نظرتك إليه اليوم، صوبها جيدًا، واقترب من القوام الفارع. وقوم انحناءته الخفيفة، وأمسك بالوجه بين يديك، وامسح تجاعيده، وافتح العينين واسكب فيهما كثيرًا من الومض الذى اختفى.. والتقط بأصابعك الشعرات البيض فى رأسه وفى حاجبيه. ثم اطو السنين الستين التى مضت، يبدُ لك لطفى السيد كما كان فى سنة ١٨٩٨..

لقد لمع اسمه فى ذلك الحين شابًا مفكرًا، يتحدث عن أرسطو وأفلاطون، والفارابى، والغزالى. وكان زملاؤه يتحدثون عن الحريرى وبديع الزمان الهمذانى وابن نباته المصرى!!

واشتغل لطفى السيد مساعد نيابة ولبث فى الوظيفة سنتين ثم غادرها إلى المحاماة.. لم يكن مكتبه حافلا بالزبائن ولم يكن هو فى حاجة إليهم. إن أباه السيد باشا أبو على قد كفاه مشقة السعى المادى للحصول على حاجات الحياة.

وفى يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ وقع حادث دنشواى، الحادث الذى اهتزت له البلاد وارتكبت فيه بريطانيا أشنع جرائم العسف والظلم والطغيان.. واشترك لطفى السيد مع زملائه المحامين عن المتهمين فى دراسة القضية. وقد كانت له طريقة خاصة فى المرافعة..

كان المحامون يترافعون فيخطبون ويصيحون ويهتفون، أما هو فكان يتكلم كأنه يكتب، كان فى مرافعته يفكر بصوت مسموع!

هذا الرجل الشجاع المفكر لا بد له من مجال تظهر فيه آثار حريته وشجاعته وفكره.

إن الصحافة هى هذا المجال.. ولكن صحف ذلك العهد كانت تتسع للألفاظ وتضيق بالمعانى. وهو رجل كله معان.

كانت تدعو إلى التحرر من احتلال بريطانيا وإلى الولاء لسلطان تركيا، وهو رجل يريد لبلاده أن تتحرر من بريطانيا وتركيا معًا، فلينشئْ صحيفة جديدة إذن. وأنشأ «الجريدة» وساعده على إنشائها حزب الأمة.. وبدأ الأسلوب العربى الجديد يشق طريقه إلى الأذهان، إن أسلوب لطفى السيد اليوم. هو أسلوبه بالأمس.. أسلوب المسدس: تنطلق الكلمة كالرصاصة.. والرصاصة تصيب الهدف. وكان الأسلوب العربى إذ ذاك أشبه بالسيف يدور فى اليد ويلف ويهبط إلى تحت ويصعد إلى فوق.. ثم لا يصيب الهدف!!

نحن الآن فى ١٩٤٩ فى منتصف القرن العشرين فلنمض لحظات مع الرجل الذى هدم خرافات القرن الماضى واشترك فى بناء القرن الجديد! دخلت عليه فى محرابه فى مكتبة داره بمصر الجديدة، إن الذين يقابلهمْ فى هذا الركن هم أعز أصدقائه، وأُحبابه. أرسطو وأفلاطون وأناتول فرانس وأبوالعلاء المعرى والغزالى.. وأحيانًا شوقى والمتنبى!

كان متعبًا، لأول مرة أشعر بوطأة السنين تضغط قوامه. كانت الأيام من قبل تمشى فى عظامه بخطى متئدة، ولكنى أراها الآن وكأنها تثب وتعدو. عرفته دائمًا منتصب القامة.. ولكنه فى هذه المرة اضطر ـ لكى يسمعنى. إلى أن يحنى هامته ويمد رقبته قليلا إلى الأمام، ويصوب أذنه نحو فمى!..

كان فى دور النقاهة.. وقال لى: تحدث أنت.. فإن الكلام أصبح يرهقنى، ولولا أنى لا أحسن الشكوى، لشكوت من زمان طويل!

قلت إن الجيل الجديد كله فى حاجة إلى حياتك وإلى شيخوختك.. إنك المثل الحى للحرية والاضطهاد.. ولقد استطعت بحريتك أن تنتصر على مضطهديك!! فطغى أسلوبك وانتشرت تعاليمك السامية..

قال أية تعاليم؟.. إننى لم أفعل شيئًا! كل ما هنالك أنى ساهمت فى الحركة التى قام بها بعض المصلحين من أبناء زمانى أمثال سعد زغلول وحسين رشدى وعبد الخالق ثروت وقاسم أمين وعلى شعراوى ومحمد عبده.. وكانت مهمتنا ـ أقصد مهمتهم ـ صعبة جدًا. كنا نحاول أن نشق للشعب

طريقًا فى جبل شامخ لـه ذروتـان.. إحـداهما ذروة الخـديو، والأخرى ذروة الإنجليز. كنا نطالب الخديو بـدستورنا ونـطالب الإنجليز بحريتنا..

إلى أن كانت ثورة ١٩١٩، وفى هـذه الثـورة وحـدها.. استطاعت الأمة أن تعـبر عـن إرادتها تجـاهد وتصـمد فى جهادها، والفضل فى ذلك يرجع إلى الإنجلـيز.. لا تـدهش. إنهم هم الذين أوقدوا نـار الثـورة بـرعونتهم وتصرفـاتهم الطائشة!! ولست أقول ذلك الآن فقط..

فى سنة ١٩١٩ نفسـها سـأل «كيرزن قـائلا»: أريـد أن أعرف من هو المسئول عن هذه الثورة؟

فكان جوابى أنتم المسئولون عـن ثـورة المصريـين. إن احتلالكم وحماقاتكم المتكررة مع الشـعب كانـت وقـود النـار، وعود الثقاب.

قلت: إن هذا تاريخ حـافل.. وأنـت قـد عشـت ذلك التاريخ.. بل لقد صنعته فأين مذكراتك عنه..

فقال: مذكراتى؟.. لقد أحرقتها!!

قلت: إنها تاريخ بلادك.. فكيف أحرقتها؟

قال : فى يوم من أيام سنة ١٩١٩ عندما نفى سعد زغلول. ولا أذكر الشهر تمامًا، كنت جالسًا مع على شعراوى فى بيته، وكان معنا عبد العزيز فهمى، وجاء يوسف نحاس وأخبرنا أنه علم أن الإنجليز قرروا أن يلقوا القبض على أربعة من أعضاء الوفد. ويجردوهم من أموالهم ويعدموهم رميًا بالرصاص. ثم قال معقبًا. إنه لا يستبعد أن نكون نحن الثلاثة فى مقدمة هؤلاء الأربعة. ولما سمعت هذا النبأ لم أستغرب وقوعه.. فإنه ليس إلا حلقة من سلسلة الحماقات التى ارتكبتها بريطانيا معنا، ولم يكن يؤلمنى أن أموت رميًا بالرصاص أو شنقًا، فالموت حقيقة لابد من مواجهتها مهما طال اختباؤها فى السنين... ولم يكن يهمنى حرمانى من مالى.. فليس للمال مكان بين القيم التى أعتز بها.. ولكن خشيت من أن تهاجم السلطات البريطانية بيتى، تفتشه وتعثر على مذكراتى السياسية، وقد دونت فيها جميع الحقائق وكان بعضها حلوًا، وكان بعضها مرًّا، وفى المذكرات الخاصة يسجل الإنسان كل صغيرة وكبيرة، وقد كانت الصغائر التى تمس حركتنا كثيرة جدًّا، كنت أسجل فى مذكراتى رأى سعد زغلول فى ثروت ورشدى وعدلى.. ورأى ثروت وعدلى ورشدى فى

سعد زغلول وهكذا.. وكانت المذكرات تتضمن أسرارًا خطيرة.. إذا اطلع عليها الإنجليز.. استطاعوا أن يؤذوا الحركة إيذاء شديدًا..

ولهذا لم أكد أسمع النبأ الذى ألقاه يوسف نحاس. حتى بادرت بالذهاب إلى بيتى فى سيارة على شعراوى، وكان البيت فى المطرية، وعقب وصولى إليه.. اتجهت إلى مكتبى وأخرجت كل ما فى الدولاب من الأوراق والمذكرات والوثائق.. وأمرت الخادم أن يضعها فى الحمام.. ثم أشعلت فيها النار.

ولا أكتمك أنى حزنت، لقد أحسست أن النار تحرق أفكارى وآرائى وحقبة مهيبة من تاريخ بلدى..

وانتظرت إلى الساعة الثانية صباحًا.. فلما لم يجئ أحد دخلت غرفة نومى، وفى اليوم التالى انتظرت فلم يجئ أحد. وإلى اليوم.. لم يجئ أحد.. ولم أعدم رميًا بالرصاص كما ترى.. وكل ما هنالك أن مذكراتى هى التى أعدمت أو على الأصح أحرقت، وقد أحرقتها بنفس اليد التى كتبتها..

قلت: هذه خسارة كبيرة ولا شك..

فقال: لا أظن.

قلت : إنها تاريخ.

قال : وما قيمة التاريخ؟ لقد كان فلاسفة الهند وهم فى أوج تفكيرهم قبل ميلاد المسيح بثلاثة آلاف سنة.. يصنعون المعجزات ولكنهم كانوا يعجزون عن أن يؤرخوا ما يصنعونه!

إن العبرة ليست بمقدمات التاريخ.. ولكن العبرة بنتائج التاريخ.

قلت : وماذا ترون فى نتيجة تاريخنا؟

قال : إن النتيجة عظيمة ولا شك.. إن ما نقاسيه من عذاب وشقاء واضطراب.. يهون حتما أمام أننا أصبحنا أحرارًا، وأننا رأينا الاحتلال البريطانى وهو يتقلص من المدن، وسيأتى اليوم الذى يزول فيه من بلادنا كلها..

لقد كنا فى الماضى أكثر شجاعة... واليوم أصبحنا أكثر حرية.

قلت : والشجاعة؟

فقال : إنها لا تزال مع الأسف تعيش فى الماضى فقط.

قلت : ولكن كيف؟! وقد أصبح لنا جيش حارب فعلا وأبدى ضروبًا من الشجاعة..

فقال لا أقصد شجاعة الجيش.. فهذا فخر لا جدال فيه.. ولكني أقصد شجاعة الرأى.. وهذا ما لانزال فى حاجة إليه!!

* * *

إن لطفى السيد لم يكن أستاذ جيل واحد.. بل كان أستاذ ثلاثة أجيال، فقد عاش أكثر من سبعين عامًا، ورأى بعينه بلاده وقد تحررت من الإنجليز ومن أسرة محمد على..